

## أفعال الرسول في الأمور الدنيوية

د • محمد سليمان الأشقر

نعنى بالأمور الدنيوية ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم بقصد  
تحصيل نفع في البدن أو المال ، له أو لغيره ، أو دفع ضرر كذلك ، أو  
ما دبره في شأن نفسه خاصة أو شئون المسلمين عامة ، لغرض التوصل  
الى جلب نفع أو دفع ضرر •

ويشمل هذا النوع من الأفعال الأضراب التالية :

الضرب الأول : الأفعال الطبية ، وهى ما يجريه على بدنة خاصة ،

أو أبدان غيره من الناس بقصد دفع مرض حاضر أو متوقع •

فقد تناول النبي صلى الله عليه وسلم ، أو أعطى غيره ، أطعمة  
وأشربة متنوعة ، على سبيل حفظ الصحة ، أو لدرء أمراض معينة ،  
كألبان الابل وأبوالها (١) •

وكذلك تعاطى وعاطى أنواعا مختلفة من العلاج ، فقد احتجم

(١) البخارى ١٧٨/١٠ •

واستعط (٢) ، وكانت حجامته في وسط رأسه (٣) . وكانت حجامته من شقيقة كانت به (٤) .

ولما اشتد به وجعه أهريق عليه من سبع قرب لم تحلل أو كيتهن (٥) . ولما جرح بأحد ، ألصق على جرحه رماد حصير محترق ليرقا الدم (٦) . ودأوى بريقه مع تراب ، وقال « تربة أرضنا ، بريقة بعضنا ، يشفى سقيمنا ، بأذن ربنا » (٧) .

• ورفض أدوية معينة كاللذود (٨) .

الضرب الثاني : الأفعال في الزراعة ، بأن يزرع أنواعا معينة من النبات ، أو يزرع بطريقة ما ، أو يسقى المزروعات كذلك ، أو يفعل بالنبات شيئا بقصد تكثير إنتاجه أو تحسينه أو نحو ذلك .

وشبيه بها ما يفعل بالحيوان بقصد تكثير إنتاجه وتحسينه ، كاطعامه أعلافا معينة ، أو المزاوجة بين سلالات منه مختلفة بقصد الحصول على نسل أجود .

الضرب الثالث : الصناعة ، بأن يصنع بمادة شيئا ما ، بقصد تحويلها الى شكل ذي أوصاف مخالفة لشكلها الأول ، لتكون أنفع ، أو يحلل مادة ما الى حالات أبسط ، أو يركب مادة مع مادة بقصد الحصول منهما على مادة جديدة ، هي أنفع من الأصل .

الضرب الرابع : التجارة ، بأن يعمل في البيع والشراء ، في أشياء معينة في ظروف معينة ، بقصد تحصيل مكسب من فروق الأسعار .

الضرب الخامس : أنواع أخرى من المكاسب كرعى الغنم ، أو العمل للغير بأجر .

- |   |                      |
|---|----------------------|
| • البخارى ١٥٢/١٠ (٣)  | • البخارى ١٤٧/١٠ (٢) |
| • البخارى ١٦٧/١٠ (٥)  | • البخارى ١٥٣/١٠ (٤) |
| • البخارى ٢٠٨/١٠ (٧)  | • البخارى ١٧٤/١٠ (٦) |
| (٨) حديث اللذود : البخارى ١٦٦/١٠ واللذود ماسقى من الدواء بالمسعط فى الفم ( اللسان ) . |                      |

الضرب السادس : التدابير التى اتخذها صلى الله عليه وسلم فى الحرب من استعمال المجانيق والسيوف والرماح والسهام وتربية الخيل للقتال وحفر الخنادق وترتيب الجيوش وتدريبها .

الضرب السابع : التدابير التى اتخذها صلى الله عليه وسلم فى الادارة المدنية، من اتخاذ الولاة والكتاب والحراس والحجاب والسفراء ، وكذلك الأعلام والشعارات ، والمرافق من الطرق والعصون وغيرها<sup>(٩)</sup> . فهذه الأضراب وأمثالها قد وقع من النبى صلى الله عليه وسلم الكثير من أفرادها ، ونقل لنا أشياء من ذلك .

والنظر فى الأحكام التى يسكن أن تدل عليها مثل تلك الأفعال من وجهين :

الوجه الأول : أصل الطب والزراعة ، والصناعة والتجارة ، والقصد الى تحصيل المكاسب ، والسعى لتحقيق التدابير المدنية والعسكرية المناسبة ونحو ذلك ، يستفاد من فعله صلى الله عليه وسلم فى ذلك إباحته ، وأنه لا يخالف العقيدة ولا الشريعة . وقد يترقى الى درجة الاستحباب أو الوجوب بحسب الأحوال الداعية اليه .

وفى الحديث القولى اشارة الى ذلك حيث قال صلى الله عليه وسلم<sup>(١٠)</sup> « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده » .

ومن قال فى الأمور الجبلية التى فعلها صلى الله عليه وسلم أنه يستحب لنا التأسى بها ، فكذلك يقول هنا ، ومن ادعى الوجوب فكذلك . الا أن القول بأن الأصل فيها الاباحة أصوب كما تقدم فى أفعال الجبلية الاختيارية .

الوجه الثانى : الأمر الذى عمله بخصوصه ، هو مباح له وقد يكون مستحبا له أو واجبا عليه لاعتقاده صلى الله عليه وسلم أنه هو المؤدى الى غرض مستحب أو واجب .

---

(٩) انظر الكتاب القيم فى تفاصيل ذلك : التراتيب الادارية لمؤلفه عبد الحى الكتانى . نشرته بيروت ، دار احياء التراث العربى ، صورة بالافست .

(١٠) رواه البخارى ٤/٣٠٣ .

لكن هل يكون حكم مثله بالنسبة لنا كذلك ، كما لو شرب دواء معيناً لعلاج مرض معين ، فهل يستحب لنا شرب ذلك الدواء لذلك المرض ، أو يجب ، بل هل يباح بناء على ذلك أم لا ؟

هذا ينبغي على أصل ، وهو أن اعتقاداته أو ظنونه صلى الله عليه وسلم في الأمور الدنيوية هل يلزم أن تكون مطابقة للواقع ، بمقتضى نبوته ، أو أن هذا أمر لا صلة له بالنبوة ؟ اختلف العلماء في ذلك على مذهبين :

المذهب الأول : انه صلى الله عليه وسلم معصوم من خطأ الاعتقاد في أمور الدنيا ، بل كان كل ما يعتقد في ذلك فهو مطابق للواقع .  
ولم نجد أحدا من قدماء الأصوليين ، صرح بمثل هذا المذهب .

ولكنه لازم لمن جعل جميع أفعاله صلى الله عليه وسلم حجة حتى في الطيبات والزراعة ونحوها . وهو لازم أيضا لمن صحح منهم أن تقريره صلى الله عليه وسلم لمخبر عن أمر دنيوى يدل على صحة ذلك الخبر ، كما فعل السبكي وأيده المحلى والبناني (١١) .

والذين عند حصرهم أقسام الأفعال النبوية ، لم يذكروا الفعل النبوى في الأمور الدنيوية ، كقسم من أفعاله لا دلالة فيه ، يظهر أنهم يقولون بهذا القول ، اذ يلزمهم أن يكون فعله صلى الله عليه وسلم في الطب مثلا دليلا شرعيا . من هؤلاء مثلا أبو شامة ، والسبكي ، وابن الهمام ، وغيرهم .

وابن القيم في كتابه ( الطب النبوى ) (١٢) يذهب الى حجية أفعاله صلى الله عليه وسلم في الطب ، فيلزمه القول بهذا المذهب .

ويظهر أن هذه طريقة المحدثين ، فانا نجد عند البخارى مثلا هذه الأبواب ، ولم يذكر فيها من الأحاديث الا أحاديث فعلية ( باب السعوط )

(١١) انظر جمع الجوامع وشرحه وحاشيته ١٢٧/٢ ، ١٢٨ ، وأيضا ٩٥/٢  
(١٢) هو بعض كتابه المشهور ( زاد المعاد فى هدى خير العباد ) وقد طبع أيضا مفردا .

( باب أى ساعة يحتجم ) ( باب الحجامة فى السفر ) ( باب الحجامة على الرأس ) ( باب الحجامة من الشقيقة والصداع ) (١٣) وعند غيره من المحدثين ، كأصحاب السنن تبويبات متشابهة • ويوافقهم الشراح غالبا على ذلك ، فيذكرون استحباب أدوية معينة ، لأمراض معينة ، بناء على ما ورد فى ذلك من الأفعال النبوية •

المذهب الثانى : أنه لا يجب أن يكون اعتقاده فى أمور الدنيا مطابقا للواقع ، بل قد يقع الخطأ فى ذلك الاعتقاد قليلا أو كثيرا • بل قد يصيب غيره حيث يخطئ هو صلى الله عليه وسلم •

قالوا : وليس فى ذلك حط من منصبه العظيم الذى أكرمه الله به ، لأن منصب النبوة منصب على العلم بالأمور الدينية ، من الاعتقاد فى الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والأمور الشرعية • أما اذا اعتقد أن فلانا مظلوم فاذا هو ظالم ، أو أن دواء معينة يشفى من مرض معين فاذا هو لا يشفى منه ، أو أن تدييرا زراعيا أو تجاريا أو صناعيا يؤدى الى هدف معين ، فاذا هو لا يؤدى اليه ، أو يؤدى الى عكسه ، أو أن تدييرا عسكريا أو اداريا سينتج مصلحة معينة ، أو يدفع ضررا معينة ، فاذا هو لا يفعل ، فان ذلك الاعتقاد لا دخل له بالنبوة ، بل هو يعتقده من حيث هو انسان ، له تجاربه الشخصية ، وتأثيراته بما سبق من الحوادث ، وما سمع أو رأى من غيره مما أدى الى نتائج معينة ، فكل ذلك يؤدى الى أن يعتقد كما يعتقد غيره من البشر ، ثم قد يكشف الغطاء فاذا الأمر على خلاف ما ظن أو اعتقد •

وقد صرح بأصل هذا المذهب دون تفاصيله القاضى عياض (١٤) والقاضى عبد الجبار الهمدانى المعتزلى (١٥) والشيخ محمد أبو زهرة (١٦)

(١٣) صحيح البخارى ١٤٥/١٠ - ١٥٢ •

(١٤) الشفاء ١٧٨/٢ •

(١٥) المغنى ٢٥٦/١٧ حيث جعل من شرط الاقتداء بالفعل « أن يكون مما له مدخل فى الشرع ولا يكون جعل مما يفعل للمنافع والمضار » •

(١٦) كتابه : تاريخ المذاهب الفقهية ص ١٠ •

وظاهر الحديث أنه صلى الله عليه وسلم كغيره من الناس في ذلك ، بل فيه التصريح بأن أصحاب الخبرة في صنائعهم وتجاراتهم وزراعاتهم قد يكتفون أعلم منه بدقائقهما . إلا أن القاضي عياض جعل الخطأ في ذلك نادرا ، لا كثيرا يؤذن بالبله والغفلة (١٧) .

ويحتج لهذا المذهب بأدلة منها :

أولا : حديث تأييد النخل ، ففي صحيح مسلم عن رافع بن خديج أنه قال « قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فاذا هم يأبرون النخل فقال : « ما تصنعون ؟ » قالوا : كنا نصنعه . قال : « لعلكم لو لم تعملوا كان خيرا » فتركوه ، فنفضت ، فذكروا ذلك له . فقال : « انما أنا بشر ، اذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، واذا أمرتكم بشيء من رأيي فانما أنا بشر »

وفي رواية طلحة ، قال صلى الله عليه وسلم : « ما أظن ذلك يعني شيئا » فأخبروا بذلك فتركوه . فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال : « ان كان ينفعهم ذلك فليصنعوه ، فاني انما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن ، ولكن اذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به فاني لن أكذب على الله » وفي رواية أنس : « أتمم أعلم بدنياكم » (١٨) .

وشبيه به حديث ابن عباس في قصة الخرص (١٩) « وفيه : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما أنا بشر فما حدثتكم عن الله فهو حق ، وما قلت فيه من قبل نفسي فانما أنا بشر » .

وقد رد الاستدلال بهذا الحديث ، بأن المراد : أتمم أعلم بدنياكم من أمر دينكم (٢٠) ويكون توبيخا لهم .

(١٧) الشفاء ١٨٠/٢ .

(١٨) راجع لروايات هذا الحديث : صحيح مسلم ١٨٣٥/٤ ومسند

أحمد ١٥٢/٣ .

(١٩) ذكره القاضي عياض : الشفاء ١٧٨/٢ ولم يعزه .

(٢٠) اللبناني : حاشيته شرح جمع الجوامع ١٢٨/٢ وأيضا : عل القارى :

شرح الشفاء .

وسياق الأحاديث على اختلاف رواياته يأبى هذا التأويل ويطله .

ثانيا : حديث أم سلمة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال (٢١) : « انما أنا بشر ، وأنكم تختصمون الى ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع . فمن قضيت له بحق أخيه شيئا فلا يأخذه ، فانما أقطع له قطعة من النار » .

وفى رواية الزهرى للحديث المذكور (٢٢) : « انما أنا بشر ، وانه يأتينى الخصم فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فاحسب أنه صادق ، فأقضى له بذلك » .

إذا ثبت الأصل الذى ذكرناه آنفا ، فانه ينبنى عليه أن ما فعله صلى الله عليه وسلم فى أمور الدنيا مما مرجعه الى تجاربه الخاصة ، وخبرته الشخصية ، وتفكيره وتقديره فى الأمور الدنيوية التى ليس لها علاقة بالدين ، لا يدل على مشروعية ذلك الفعل بالنسبة الى الأمة .

وممن صرح بهذه القاعدة بصفتها العامة من الأصوليين القدامى القاضى عبد الجبار (٢٣) .

وصرح به حديثا ولى الله الدهلوى (٢٤) ومحمد أبو زهرة (٢٥) ، وعبد الوهاب خلاف (٢٦) ، وعبد الجليل عيسى (٢٧) ، وفتحى عثمان (٢٨) .

---

(٢١) البخارى ١٥٧/١٣ وأصله عند مسلم وأبى داود .

(٢٢) البخارى ١٧٢/١٣ .

(٢٣) المغنى ٢٦٩/١٧ .

(٢٤) حجة الله البالغة ٢٧٢/١ .

(٢٥) كتاب : تاريخ المذاهب الفقهية . ص ١٠ .

(٢٦) كتابه : أصول الفقه ص ٤٣ .

(٢٧) اجتهاد الرسول .

(٢٨) الفكر القانونى الاسلامى بين أصول الشريعة وتراث الفقه ،

القاهرة ، مكتبة وهبة ( د . ت ) ص ٦٨ .

أما من حيث التفصيل فقد وضعه ابن خلدون في المقدمة ، في شأن ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم في شأن الطب ، حيث قال :

« الطب المنقول في الشرعيات من هذا القبيل - يعنى طب البادية المبنى على تجارب قاصرة - وليس من الوحي في شيء ، وانما هو أمر كان عاديا للعرب ، ووقع في ذكر أحوال النبي صلى الله عليه وسلم ، من نوع ذكر أحواله التي هي عادة وجيلة ، لا من جهة أن ذلك مشروع على ذلك النحو من العمل ، فانه صلى الله عليه وسلم انما بعث ليعلمنا الشرائع ، ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العاديات • وقد وقع له في شأن تلقيح النخل ما وقع ، فقال : أتم أعلم بأمور دنياكم • قال : فلا ينبغي أن يحمل شيء من الطب الذي وقع في الأحاديث المنقولة على أنه مشروع • فليس هناك ما يدل عليه • اللهم الا اذا استعمل على جهة التبرك وصدق العقد الايمانى فيكون له أثر عظيم النفع ، وليس ذلك في الطب المزاجى » أ هـ (٢٩) •

#### رأينا في ذلك :

نختار المذهب القائل بأن أفعاله الدنيوية ليست تشريعا ، وذلك لاجل الأدلة الآتية :

١ — قوله تعالى ( قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى اللى ) وقوله ( قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا ) وقد تكرر التأكيد في الكتاب على بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم وإنه ليس إلها ولا ملكا ولا يعلم الغيب • ومن المعلوم أنه صلى الله عليه وسلم لما نبأه الله عز وجل ، لم يمنعه من تصرفاته البشرية كما يتصرف غيره من الناس على غالب الظنون والتقاير التي تخطيء وتصيب ، ولا تعهد له بأن يمنعه من الخطأ في ذلك ، فالأصل استمرار حاله في ذلك كما كان قبل النبوة ، لما لم يدل على انتقاله عن ذلك دليل •

وقد أكدت السنة النبوية ما بينه القرآن من ذلك ، كما يأتى :



٢ — قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما أنا بشر فإذا أمرتكم بأمر دينكم فاقبلوه • وإذا أمرتكم بشيء من دنياكم فانما أنا بشر » • وفي رواية : أتم أعلم بدنياكم • وقد تقدم هذا الحديث •

وبهذا الحديث ، برواياته المختلفة ، يؤصل النبي صلى الله عليه وسلم أصلا عظيما في الشريعة ويبينه لنا ، ويشعرنا بأن بعض أفراد الأمة قد يكونون أحيانا أعلم منه صلى الله عليه وسلم بما يتقنونه من أمور الدنيا ، والمقصود أهل الخبرة في كل فن وصناعة ، وأنه لا داعى شرعا لالتفاتهم الى ما يصدر عنه صلى الله عليه وسلم من ذلك الا كما يلتفتون الى قول غيره من الناس •

٣ — ما ذكر ابن اسحاق في سيرته (٣٠) ، في سياق غزوة بدر ، قال : حدثت عن رجال من بنى سلمة ، أنهم ذكروا أن الحباب ابن المنذر ، قال : يا رسول الله : أرايت هذا المنزل ، أمزلا أنزلكه الله ، ليس لنا أن نتقدمه • ولا تتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة • فقال : يارسول الله • فان هذا ليس بمنزل • فانهض حتى تأتى أدنى ماء من القوم ، فنزله • ثم نعور ما وراءه من القلب • ثم بنى عليه حوضا فسلئوه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أشرت بالرأى •

٤ — ما ورد في الحديث أن نفرا دخلوا على زيد بن ثابت ، فقالوا له : حدثنا أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : كنت جاره ، فكان اذا نزل عليه الوحي بعث الى فكتبته له ، فكان

---

(٣٠) سيرة ابن هشام ، وعليها الروض الانف للسهيلى ، بتحقيق عبد الرحمن الوكيل • القاهرة دار الكتب الحديثة ( د • ت ) ٩٧/٥ •

إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا ،  
وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا ، فكل هذا أحدثكم عن رسول الله  
صلى الله عليه وسلم (٣١) .

ه — ما ورد عن هشام بن عروة ، ان عروة بن الزبير كان يقول  
لعائشة (٣٢) « يا أماء ، لا أعجب من فهمك ، أقول : زوجة  
رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنت أبي بكر . ولا أعجب من  
علمك بالشعر وأيام الناس : أقول : ابنة أبي بكر ، وكان أعلم  
الناس أو من أعلم الناس . ولكن أعجب من علمك بالطب ،  
كيف هو ومن أين هو ؟ » قال : فضربت على منكبه ، وقالت :  
« أى عريّة ! ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسقم  
عند آخر عمره ، أو في آخر عمره . فكانت تقدم عليه وفود  
العرب من كل وجه ، فينعتون له الأنعام ، وكنت أعالجها له » .

### مسائل متممة لبحث الأفعال النبوية الدنيوية :

#### المسألة الأولى :

إذا انضم الى الفعل الدنيوى قول أمر ، فذلك يخرج الأمر من  
باب الأفعال ويعود النظر الى الدليل القولى ، وذلك خارج عن موضوع  
بحثنا .

وليت بعض الباحثين يتولى بحث الأقوال النبوية المتعلقة بالأمر  
الدنيوية ليصل فى شأنها الى قول فصل ، ثم يجمعها من كتب الحديث  
وينص على ما يصح استفادته منها من الأحكام وما لا يصح .

#### المسألة الثانية :

إذا نص القرآن على أمر دنيوى فهو حق لا مرية فيه ، لأنه من  
الله تعالى الذى لا تخفى عليه خافية فى السموات ولا فى الأرض .

(٣١) ذكره الدهلوى فى حجة لله البالغة ٢٧٢/١ ولم يعزه .

(٣٢) رواه أحمد فى مسنده ( ٦٧/٦ ) .

فان كان الفعل النبوى فى الشئون الدنيوية استجابة لارشادات القرآن التى تتعلق بذلك الأمر ، فيكون الفعل بياناً أو امتثالاً للقرآن ، ويحصل على الشرعى • ولعل خير مثال على ذلك شربه صلى الله عليه وسلم العسل للتداوى (٣٣) ، فان ذلك تطبيق لقوله تعالى ( يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ) •

وشبيه بذلك ما أخبر صلى الله عليه وسلم أنه فعله عن وحى من الله تعالى •

### المسألة الثالثة :

إذا تردد الفعل بين أن يكون دنيوياً أو دينياً حمل على الدينى ، لأنه الأكثر من أفعاله صلى الله عليه وسلم ، والله أعلم •

---

(٣٣) الخطيب البغدادى عن أنس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اشتكى اقتصح كفاً من شونيز وشرب طيه ماء وعسلاً ( الفتح الكبير )